هوامش

يعد مسجد قول شريف داخل جدران الكرملين الأبيض في مدينة قازان، عاصمة جمهورية تتارستان، نموذجاً للعمارة الإسلامية الحديثة ورمزاً للتعايش بين الأديان والإصلاحات الديمقراطية في روسيا نهاية القرن الـ20

يعد مسجد قول شريف من أبرز معالم تتارستان (العربي الجديد)

مسجد قول شريف

رمز للتعايش بين الأديان في تتارستان

موسكو ـ **رامي القليوبي**

داخل جدران الكرملين الأبيض في مدينة قازان، عاصمة جمهورية تتارستان في روسيا، ثمة بناية لافتة للأنظار لمسجد قول شريف الذي افتتح في 24 يونيو/ حزيران 2005، وسرعان ما تحول إلى رمز لتتارستان الجامعة بين الانفتاح على العالم وبقائها أحد أهم مراكز الإسلام في البلاد.

ويحمل المسجد اسم الإمام قول شريف، وهو شخصية دينية ودبلوماسي وشاعر ترأس أحد مساجد قازان في عهد خانية قازان في القرن الـ16. كما يعد قول شريف نموذجاً للعمارة الإسلامية الحديثة مع مراعاة الخصائص المعمارية التترية، وهو بذلك أكبر مسجد في قازان وتتارستان ويتسع لأكثر من 1500 مصلٍّ في آن. ويقول الناطق باسم متحف كرملين قازان في إفادة لـ«العربي الجديد»: «شكل مسجد قول شريف عند افتتاحه رمزاً للإصلاحات الديمقراطية في روسيا نهاية القرن الـ20 وتنامي الوعي القومي للتتار. ومنذ وضع حجر الأساس وحتى بناء المآذن، حظي المسجد باهتمام الأوساط الاجتماعية وقيادتي تتارستان وروسيا، ودعم مالي من شركات كبرى وحكومات دول أجنبية». وسرعان ما تحول قول شريف إلى أحد المقاصد الرئيسية للسياح الروس والأجانب القادمين إلى قازان، فاتحاً أبوابه أمام معتنقي جميع الأديان شرط الالتزام بلباس يتناسب مع زيارة مسجد. وإلى جانب الاستمتاع بالتصميم والزخرفة الفريدة من نوعها، يمكن للمهتمين الاستماع إلى التلاوة الحية للقرآن الكريم التي لا تتوقف منذ بداية عام 2015 إلا لفترات أداء الصلاة، ويقوم 12 حافظاً بختم القرآن يومياً، كما تمكن متابعة بث التلاوة أونلاين عبر موقع الإدارة الدينية لجمهورية تتارستان.

وما يلفت نظر زائر قازان أن المجمع المعماري للكرملين ومسجد قول شريف يهيمن عليهما اللون الأبيض على عكس الاعتقاد الشائع بأن جدران الكرملين تكون حتماً من اللون الأحمر كما هو حال كرملين موسكو. ويتحدث الناطق باسم المتحف عن سبب بياض الكرملين قائلاً: «شكلت قلعة بلغار الفولغا التي بنيت في القرنين العاشر والحادي عشر قاعدة للكرملين الحديث. وبعد سيطرة القيصر الروسي إيفان الرابع الملقب بالرهيب على قازان في القرن الـ16، بني محلها الكرملين الأبيض. يرجع هذا اللون إلى اعتماد الحجر الجيري الأبيض في البناء في ذلك العصر. أما اللون الأبيض لقول شريف، فيعود إلى كسوته من الرخام الأبيض الذي جُلب خصيصاً من مقاطعة تشيليابينسك الروسية». ولما كانت كاتدرائية البشارة تقع على بعد أمتار من مسجد قول شريف، تحول كرملين قازان إلى نموذج للتعايش بين مختلف الثقافات والأديان، شأنه في ذلك شأن جمهورية تتارستان التي يقطنها التتار والروس وغيرهما من القوميات. وإلى جانب كونه داراً للعبادة، يضم مسجد قول شريف مخطوطات ومعارض تتناول وحدة الأديان الإبراهيمية، اليهودية والمسيحية والإسلام، فيما كتب في قاعة الصلاة للرجال أسماء أنبياء الأديان السماوية. ويضم متحف الثقافة الإسلامية التابع للمسجد قطعاً تمثل نماذج للثقافات القومية والدينية لشعوب روسيا على امتداد القرون.

ومع انفتاح روسيا على العالمين العربي والإسلامي، تحول قول شريف إلى أحد المقاصد الرئيسية للطلاب والزائرين من أصول إسلامية، كما لا تمر زيارة لوفد رفيع من دولة إسلامية من دون جولة تفقدية في المسجد يهدي خلالها لمتحفها نسخة مزخرفة للمصحف الشريف. وتعد تتارستان أحد أهم مراكز المسلمين في روسيا، إذ أظهر استطلاع أجري قبل بضع سنوات أن 72 في المائة من سكان قازان يعتنقون الإسلام. وعلى مستوى عموم تتارستان، تشير البيانات الإحصائية الرسمية الروسية عن عام 2010 إلى أن سكان تتارستان ينقسمون بصورة متساوية إلى التتار والروس بواقع نحو 48 في المائة لكل قومية منهما. ويشكل التتار ثاني أكبر شعوب روسيا، إذ أظهر آخر تعداد للسكان أجري عام 2021 أن عدد التتار في روسيا يبلغ نحو 4,7 ملايين، لكنهم لم يسلموا، على غرار الشعوب السلافية والأوروبية، من تراجع معدلات الإنجاب، علماً أن عددهم بلغ نحو 5,3 ملايين في تعداد سابق أجري عام 2010.

وتاريخياً، يتركز وجود التتار منذ أزمنة قديمة على ضفاف نهر الفولغا التي تطل عليها قازان وغيرها من المدن الروسية، مثل نيجني نوفغورود وأوليانوفسك وسامارا. والإسلام هو الديانة الثانية الأكثر انتشاراً في روسيا بعد المسيحية الأرثوذكسية، ويقدّر عدد المسلمين فيها بنحو 20 مليوناً يتركز أغلبهم في جمهوريات شمال القوقاز وتتارستان وبشكيريا، فضلاً عن موسكو التي يقطنها مليونا مسلم على الأقل، بمن فيهم المغتربون القادمون من الجمهوريات السوفييتية السابقة في آسيا الوسطى.

باختصار

يحمل المسجد اسم الإمام قول شريف، وهو شخصية دينية ودبلوماسي وشاعر ترأس أحد مساجد قازان في عهد خانية قازان في القرن الـ16

■■■

مع انفتاح روسيا على العالمين العربي والإسلامي، تحول قول شريف إلى أحد المقاصد الرئيسية للطلاب والزائرين من أصول إسلامية

■■■

المجمع المعماري للكرملين ومسجد قول شريف يهيمن عليهما اللون الأبيض على عكس الاعتقاد الشائع بأن جدران الكرملين تكون باللون الأحمر

وأخيراً

تولستوي أم دوستويفسكي؟

نجوى بركات

إذا سألتَ روائياً بمن تأثّر أو إلى أية سلالة أدبية ينتمي، من النادر ألا تسمعه يقول اسم دوستويفسكي. بعضهم سيتحدّث عن تولستوي ولو بدرجة أقل، ربما لأن الأخير أكثر تفاؤلاً بالإنسان عندما يكون متناغماً مع الطبيعة، من مواطنه المُغرق في تشاؤمه من تناقضات النفس البشرية ومقدرتها على ارتكاب الشرور. وإذا ما كان دور الكاتب يقوم على كشف الجوانب المستترة في الواقع، فقد أبدع العملاقان الروسيان، كلّ في مضماره، في تظهير تعقيدات الأعماق الإنسانية كما فعل دوستويفسكي، أو في رسم التوحد الحميم للإنسان مع الطبيعة، كما تشير إليه حياة تولستوي وأعماله.

«اسأل امرأة أو رجلاً أيفضّل تولستوي أم دوستويفسكي، وسوف تعرف أسرار قلبه»! هذا ما كتبه الفيلسوف المسيحي الروسي نيكولاس بيرديايف عن عملاقي الرواية الروسية اللذيْن جسّدا مفهومين مختلفين جذرياً للوجود. ففي السجن في سيبيريا، أدرك دوستويفسكي الارتباط العميق للروس، بمن في ذلك المجرمون الصغار، بالتقاليد المسيحية، وبداية من «الفقراء» وصولاً إلى «الإخوة كارامازوف» استولى السؤال التالي على أعماله: «كيف يمكِن لإله الحبّ أن يخلق عالماً يوجد فيه الشر؟». إن أشقى سبع سنوات في حياته كانت أكثرها خصباً، وقد توزّعت بين نوبات الصرع وإدمان القمار وانعدام الأمان المالي والصراعات السياسية ووفاة طفله... في المقابل، كانت لتولستوي، وهو من ملّاك الأراضي وذوي الأصول الأرستقراطية، حياة مادية سهلة، وإن لم تخلُ من أزمات فكرية ووجودية كبرى حوّلته في النهاية مصلحاً اجتماعياً، داعية سلام ومُفكّراً أخلاقياً، بالإضافة طبعاً إلى إنجازه تحفاً أدبيّة خالدة.

في كتابه «تولستوي أو دوستويفسكي» يرى الفيلسوف والناقد الأدبي الفرنسي - الأميركي جورج شتاينر (1929 - 2020) أن الرواية تشير إلى مفهومين مختلفين للفن الأدبي، لدى الكاتبين الروسيّين، فقد استوحى تولستوي أسلوبه ونظرته إلى العالم من الشاعر الإغريقي هوميروس، بينما استلهم دوستويفسكي الكتّاب المسرحيين، ولا سيما شكسبير وشيلر. تولستوي روائي ملحمي، بينما دوستويفسكي روائي تراجيدي أو مأساوي. يقول شتاينر: «من المستحيل أن نلخّص الصلات بين رؤيتي هوميروس وتولستوي، وربما كانت رواية الحرب والسلم هي أفضل مثال على القرابة التي تربط بينهما: المفهوم الملحمي للوقت، تثمين البطولة القتالية، الاحتفال المستمر بقوّة الحياة وجمال الطبيعة، والاقتناع العميق بأنّ الإنسان هو مقياس الحياة ومحورها».

وبمثل عمق علاقة تولستوي بالملحمة واتّساعها، كانت علاقة دوستويفسكي بالمسرح، ففي حين يعتبر تولستوي مسرحيات شكسبير نسيجاً من السخافات تهين العقل والحس السليم، و«ليس لها أي شيء مشترك على الإطلاق مع الفن والشعر»

> بمثل عمق علاقة تولستوي بالملحمة واتّساعها، كانت علاقة دوستويفسكي بالمسرح

وأن مؤامراته مفتعلة وشخصياته تتحدّث «لغة غير طبيعية لن يتحدّث بها أي رجل حقيقي في أي مكان»، يرى دوستويفسكي أن شكسبير هو العبقري بامتياز، وقد كتب عنه في دفاتر ملاحظات روايته «الشياطين»: «شكسبير نبيٌّ أرسله الله ليكشف لنا سر الإنسان والنفس البشرية». هذا ويبرُز تأثير المسرح في فنّ دوستويفسكي بشكل خاص في حواراتٍ ترمز إلى عبقريته، إنها الكلمة تكشف عن دفائن الشخصية في الوقت الذي تقدّم فيه حبكة الرواية. وكذا تفعل بعض المشاهد (نهاية الجزء الأول من «الأبله» حيث تلقي ناستازيا الأموال في النار، أو في «الجريمة والعقاب» عندما تتهم سونيا الصغيرة خطأ بسرقة الأموال) «بالنسبة لدوستويفسكي، كان الوضع الدرامي هو الأنسب للتعبير عن حقائق الشرط الإنساني «يكتب شتاينر.

هكذا تبرز الفجوة بين تولستوي ودوستويفسكي ونظرتيهما المتناقضتين إلى الحياة والإنسان. فبالنسبة للأول، يمكن الاحتفال بجمال الإنسان عندما يكون في وئامٍ مع الطبيعة، فيما يرى الثاني أنّ الهدف الأساسي هو الإشارة إلى ظلامه الرهيب نتيجة صراعٍ دائم بين الخير والشر.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**